

المحاضرة الثامنة

بلاغة الخطاب وعلم النص

الدكتورة ثناء نجاتي عياش

الجامعة الهاشمية - الزرقاء

الأربعاء ١٦ محرم ١٤٣٥هـ - الموافق ٢٠ تشرين الثاني ٢٠١٣م

مقدمة :

يسعى هذا البحث إلى تحليل لغة الخطاب الإعلامي المقدم في البرامج الوثائقية؛ لبيان مدى تأثير هذه البرامج في المتلقي، وغني عن القول إن الهدف المنشود لهذه البرامج كسب المتلقي وجذبه؛ ليتعاطف مع المادة المقدمة له، كما يتضح من قول تودوروف: "أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع، وفي نية الراوي التأثير في المستمع بطريقة ما"^(١) وأكد هذا الأمر شמידت بقوله عن الخطاب: "إنه كل لغة متجلية في صورة تواصلية أو اجتماعية"^(٢) وفي هذا بيان أن الإيصال هو الوظيفة الأساسية لأي خطاب، ثم يتحقق التأثير بمقدار إقناع الخطاب للمتلقي؛ "ولذلك نجد أن ثمة اشتغالا - لدى صاحب الخطاب - في كيفية صوغ اللغة؛ لتغدو قادرة على حمل معطيات الرسالة وأبعادها وغايات كاتبها، لكسب ود هذا المتلقي وجذبه، ومن ثم ضمان استكمال تلقيه للرسالة واستتباع ذلك بالتأثر والتعاطف"^(٣)، فكل خطاب إعلامي يسعى إلى إيصال رسالة إلى المتلقي بأوجز الأساليب وأفصحها؛ لإحداث التأثير المطلوب تحقيقه، وهذا يؤدي إلى الاهتمام بالصياغة الفنية للمادة الإعلامية؛ وهي الغاية المنشودة التي يسعى كل خطاب إلى تحقيقها. وبهذا يمكننا القول إن النص الإعلامي يشبه النص الأدبي في الغاية التي يسعى كل منهما إلى تحقيقها^(٤)، وتحليل الخطاب الإعلامي من منظور فني، يبرز أثر اللغة في التأثير في المتلقي، ولا يقل أثر الكلمة في هذا المجال عن أثر الصورة التي تتبوأ مركز

(١) تزفتان تودوروف، اللغة والأدب في الخطاب الأدبي، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣، ٩٣.

(٢) محمود عكاشة، لغة الخطاب السياسي، دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، دار النشر للجامعات، ط١، ٢٠٠٥، ٣٨ - ٣٩.

(٣) المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، "أسلوبية الخطاب الإعلامي، تقارير" الحرب على غزة" في قناة الجزيرة نموذجا" أماني سليمان داود، م ٨، ع ١، كانون الثاني، ٢٠١٢، ص ٢١.

(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

الصدارة في الخطاب الإعلامي، وعناصر أي خطاب تقوم على: ضبط الألفاظ، واختيار المفردات المناسبة، ومراعاة الكلام لمقتضى الحال^(١).

ويهدف هذا البحث إلى إبراز بلاغة الخطاب في البرنامج الوثائقي "يُحكى أن*" وتميز البرنامج بأسلوب الإعداد والتقديم الذي غلب عليه الطابع الأدبي، وهذا شجعتني على اختياره؛ ليكون محورا لبحثي.

وسيحاول هذا البحث إبراز مواطن الجمال في أسلوب أسعد طه* معد البرنامج ومقدمه. المتمثلة في تجليات التناس، وهذا يقتضي تحليل مواطن التناس: الديني والتاريخي والأدبي والشعبي والأسطوري الذي برز بجلاء في حلقات البرنامج.

والمنهج المتبع في التحليل يقوم على تحديد مواضع التناس في حلقات البرنامج، ثم استحضار النصوص الغائبة التي استوحاها معد البرنامج ومقدمه، ثم بيان القيمة الدلالية المترتبة على التفاعل بين النص الحاضر والنص الغائب؛ فالتناس يبرز العلاقات الواعية والمقصودة بين النصوص، وهذا الأمر يكشف عن قدرة معد البرنامج ومقدمه على الاختيار الواعي لما يختاره من نصوص، وفي الوقت نفسه يكشف عن رغبته في تنشيط ذاكرة المتلقي؛ ليستحضر

(١) اللغة العربية في الإذاعة والتلفاز والفضائيات في المملكة المغربية، دراسة تحليلية ونقد، الدكتور

محمد طلال، الموسم الثقافي الحادي والعشرون، مجمع اللغة العربية الأردني، ١٨.

- تقوم فكرة البرنامج على إعادة سرد واقعة حدثت على لسان أبطالها، موثقة والاستعانة بطريقة إعادة تمثيل الحادثة. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

- صحفي مصري ولد عام ١٩٥٦، عمل مذيعا ومراسلا لدى قناة الجزيرة الفضائية، قَدَم عدة برامج وثائقية منها: "نقطة ساخنة" و"يُحكى أن"، قام بتغطية الحرب في يوغسلافيا السابقة، أعد مجموعة من البرامج الوثائقية الخاصة بمنطقة البلقان، والشيشان، والبوسنة والهرسك، أسس شركة إنتاج البرامج الوثائقية "هوت سبوت فيلمز" في دبي. ولمزيد من التفاصيل ينظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

النصوص الغائبة بما لديه من مخزون ثقافي ومعرفي^(١). مما يسهم في زيادة تفاعله مع البرنامج.

التناص القرآني:

استمد أسعد طه من القرآن الكريم في عدة مواضع من حلقات برنامجه، وتوعدت صور الاستمداد منه، وتراوحت ما بين الأخذ المباشر للنص كاملاً، والاكتفاء بأخذ الفكرة التي تضمنها النص القرآني، ثم توظيفها في سياقات جديدة بما يتناسب مع الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه من برنامجه.

برز النص القرآني بجلاء في الحلقة التي قدمت بتاريخ ١٦ / ١٠ / ٢٠٠٣، وعنوانها "سفينة الموت" تحدث فيها عن غرق مجموعة من المهاجرين من العراق حاولوا دخول استراليا بطريقة غير مشروعة، وتعرضوا لألوان شتى من التضليل والخداع، مما أدى إلى وفاتهم إثر غرق السفينة التي حملتهم. وتمثل ذلك في استحضاره لقوله تعالى: [وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] [الرعد: ٤] في أثناء حديثه عن فترة الاستراحة التي مكثها المهاجرون في الطريق قبل الوصول إلى استراليا. في قوله "ونخيل صنوان وغير صنوان يذكر المرء بالأوطان. وشعب مسالم كان هو الآخر ضحية الطغيان" الذي ربط بين بين لقطتين متباعدتين زمنياً ومكانياً، بتصويره أنّ ما شاهده المسافرون في الطريق من أشجار وثمار، ذكّره

(١) محمد علي الشوابكة، توظيف التناص في "مناهة الأعراب في ناطحات السراب" لمؤنس الرزاز، دراسة في التناص القرآني والبنائي فكرياً، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، م ١٠، ع ٢٣، ٣٣، ٤٣. وفاضل ثامر، النص بوصفه إشكالية راهنة في النقد الحديث، مجلة الأعلام، ع ٣-٤، آذار - نيسان، الجمهورية العراقية، ١٦.

والطمع: الكذب؛ لأنهم يرسمون أحلاما وردية - لا أساس لها- للمسافرين في سبيل خداعهم وتضليلهم، والطمع لأنهم لا يتورعون عن أخذ أموال هؤلاء المسافرين الفقراء الذين لا يملكون شيئا من حطام الدنيا، وليت الأمر يقف عند المهربين فبعض رجال الشرطة أيضا يشاركون في هذا العمل غير الإنساني بقبولهم الهدايا من المهربين لغرض الطرف عنهم، كما كشف قوله: "ثم أعطى الإشارة ووزع العطايا على رجال الشرطة المرتشيين" وقوله: "وشرطيون مرتشون".

ويسهم أيضا قبطان السفينة في التضليل بقوله للمسافرين عندما يصعدون السفينة: "في أستراليا يكون اللجوء السياسي، فلا فقر ولا حصار ولا شرطي ولا مخابرات، إنما هو صبر ساعة ونصل أرض الجنة" بأنهم سيصلون قريبا إلى الجنة حيث الأمن والرخاء... الخ، ببساطة سيعثرون على كل ما رحلوا من أجله. واختزل قوله (الجنة) كل مظاهر النعيم والرضى التي يطمح كل إنسان إلى التمتع بها؛ لأنه استقر في وجدان كل مسلم أنّ الجنة أقصى ما يتمناه .

وكشف توظيفه لقوله تعالى: (سَدُّهُ الزَّبَانِيَّةُ) [العلق: ١٨] عن عدم رضاه عن الحكام المستبدين الذين يظلمون الناس؛ وذلك بتشبيههم بالزبانية (ملائكة العذاب) في قوله "يدان كل من يهجر الأوطان، ويدع الحكم للزبانية، ولا يزرع في الأرض المقاومة" والقاسم المشترك بين الفئتين (الحكام الظلمة والزبانية) أنهم يسومون الناس العذاب، والفرق بينهما أنّ ملائكة العذاب تعذب من يستحق العذاب بما كسبت يده، أمّا حكام الأرض فإنهم يعذبون الناس ظلما وبهتاناً، كما أنّ عذاب أهل النار يأتي بعد حساب الناس وفرزهم إلى الجنة أو إلى النار، بناء على أعمالهم في الدنيا، أمّا حكام الأرض فيسومون المستضعفين العذاب دونما ذنب ارتكبه، ودونما تمييز. وبهذا التشبيه فإنه يساوي بين ملائكة العذاب

وهؤلاء الحكام فكلهم من مصادر العذاب، وإذا كانت ملائكة العذاب تفعل ما تفعل لاستحقاق المعذبين العذاب، أمّا الحكام فإنهم يفعلون ما يفعلون في سبيل الحفاظ على مصالحهم الخاصة، واستمرار حكمهم الاستبدادي الذي يدفع الناس دفعا إلى الهجرة عن أوطانهم، بل الذهاب إلى المجهول.

ولم يكن أمام أسعد طه وهو يرى شيوع الظلم في الأرض وغياب العدالة إلا أن يرنو ببصره نحو الآخرة، مستحضرا مشاهد مما سيحدث يوم القيامة كما بيّن النص القرآني في عدة مواضع، جمع بينها في قوله: "وكأنها القيامة، حيث العدالة، الجنة للفقراء التعماء المطحونين وجهنم للسادة الكبار ولمن منحوهم الولاء ولمن سكن البيوت البيضاء" المتضمن عدة مفاهيم ماثوثة في القرآن الكريم عن القيامة والجنة والنار، يمكن للمتلقي معرفة دلالتها، بما اختزنه في ذاكرته ووعاه مما قرأه في النص القرآني.

وحافظ على دلالة النص القرآني في حديثه عن يوم القيامة، فقد استقر في الأذهان بما كرره النص القرآني أن يوم القيامة هو يوم العدالة حيث العدل المطلق، ولكنه أباح لنفسه الخروج على دلالة النص القرآني بتصويره أن الجنة ستكون مآلا للفقراء التعماء كما وصف، ولكن هذا التعميم يتعارض مع النص القرآني الذي بين أن العمل وحده الذي يدخل الإنسان الجنة، وليس فقره أو تعاسته. فليس كل فقير تعيس يدخل الجنة، فالتعميم لا يجوز في مثل هذه الحالة. ونواقفه على أن جهنم ستكون مآلا للسادة الكبار الظالمين الذين استحقوا جهنم لظلمهم - كما قال - أو على الأقل هذا ما يرجوه كل مظلوم.

واستحضر عددا من الدلالات الإسلامية في قوله: "وأن عزاءنا أن الوطن قد عاد، وأن القصاص ليس على الأرض، والعدل ليس على الأرض، وإنما هنا في السماء، فطوبى لكم ولنا، ولهم سوء الحساب" في أثناء حديثه عن المجازر

التي ارتكبت في كوسوفا*، مستمداً من قوله تعالى: (وَلكُمْ فِي القِصاصِ حِياةٌ يا أُولِي الأَبْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ١٧٩] وقوله تعالى: (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُم سُوءُ الحِسابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهادِ) [الرعد: ١٨]، ونجح في المزج بين هاتين الآيتين، وأخذ من كل آية جزئية لكنها كانت كافية للدلالة على مراده، فالدنيا تشهد ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وتسلب القوي على الضعيف، والتكليف به بصنوف شتى من صور التكليف، وتشهد كذلك غياب الحق، لكن كل هذا مآله الزوال والتلاشي، لتحل محله العدالة الإلهية التي تعيد الحقوق لأصحابها في الآخرة، واتكأ أسعد طه على المقابلة وإيجاز القصر في نصه السابق؛ ليبين عاقبة كل من الظالمين والمظلومين في الآخرة حيث العدل المطلق (فطوبى لكم ولنا) مقابل (ولهم سوء الحساب) وأبرزت المقابلة - المستمدة من النص القرآني - التباين بين عاقبة كل فريق، فالعدالة الإلهية تقتضي نصرة المظلومين في الدنيا؛ لذا جاءت (طوبى) لتختزل مصير الفئة المظلومة في الآخرة، وفي الوقت ذاته تتضمن تخفيفاً ومواساةً للمظلومين في الدنيا الذين لا حول لهم ولا قوة، أمّا عاقبة الظالم فاخترتها قوله (ولهم سوء الحساب) وفي هذا ردع للظالمين ليعتبروا ويتوقفوا عن ظلمهم قبل فوات الأوان.

وبما أنّ نضال الشعوب في سبيل حقوقهم لا يتوقف؛ لذا تتابع قوافل الشهداء الذين شبيههم بالشجرة المثمرة في قوله - على لسان أحد ثوار جيش تحرير كوسوفا- "جدي من هنا، أنا من الأرض التي كلّمنا ذبحوا فيها شجرة نبتت منها ألف شجرة"* المستمد من قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي

* عنوان الحلقة "كوسوفا.. الحزن الدفين" المقدّمة في ١/ ٩/ ٢٠٠٦.

* عنوان الحلقة "آدم ياشاري.. بطل من زمن المعجزات والأساطير" المقدّمة في ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٥.

سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٦١] المتضمن مثلا "ضربه الله - تعالى -
لمضاعفة الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، والحسنة تضاعف بعشر
أمثالها إلى سبعمئة ضعف"^(١)، وفي هذا إبراز لعظيم فضل الله - سبحانه
وتعالى - مضاعفة لأجر والثواب، وذلك بضرب المثل بالسنبلة الواحدة التي ينتج
عنها سبعمائة سنبلة، وبالمقارنة بين النصين يتضح أن أسعد طه نقل النص
القرآني إلى سياق جديد؛ ليبين أن أهل "كوسوفا" ما زالوا متمسكين بأرضهم
على الرغم من كثرة التضحيات التي قدموها، وفي سبيل تأكيد ذلك شبّههم
بالأرض التي إذا قُطعت منها شجرة ينمو مكانها ألف شجرة، فهم قدّموا الشهيد
تلو الشهيد.

وعاد بالذاكرة إلى الورا ليعصّر مظاهر الأمن والأمان التي كان ينعم بها
أهل "كوسوفا" في الماضي القريب، مستوحيا من الرؤية (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى
سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا
الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) [يوسف: ٤٣] التي رآها الملك
في قصة يوسف - عليه السلام - قوله: "طائر يُغرد في السماء، وفراشة تُداعب
الأزهار، وصغير يُنطح الهواء، وأرض خضراء وسنابل تتمايل قبل الحصاد،
وصبايا يعشق المرء فيهن الحياء، ويعشق بهن الحياة، وفلاحتان تضحكان
وبقرات سمان، هذا كل ما كان قبل زمان" وتضمن قوله لوحة متكاملة لمظاهر
رفاهية العيش والسلام الذي كان يعم المكان، وتمثل ذلك في: تغريد الطيور،
وتنقل الفراش بين الأزهار، والأطفال الذين يلعبون ببراءة غافلين عما يحاك
ضدهم وضد بلادهم...الخ، وفصل في مظاهر النعيم والسلام التي كان يتنعم بها

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١/ ٤٢٣.

أهل "كوسوفا"؛ ليعزز مقدار الخسارة والفقد والمعاناة التي حلت بهم، بعد مهاجمة الصرب لهم.

واستوحى في تصويره السابق الجزء الأول من رؤية الملك "بقرات سمان وسنبلات خضر"، تاركا للمتلقي إتمام الصورة المتمثلة في "يأكلهن سبع عجاف" التي اختزلت كل ما فعله الصرب في تلك المنطقة، وارتكابهم المجازر.

ومع أنه نقل النص القرآني إلى سياق جديد، إلا أنه حافظ على مفردات النص القرآني (سنابل وبقرات سمان)، وهو بدأ يشير إلى أن سنوات الخير والخصب تلاها سنوات عجاف أكلت الأخضر واليابس كما يقولون.

ومن المبادئ التي استقرت في وجدان المسلم عدم جواز الفرار من المعركة كما نصّ النصّ القرآني على ذلك في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قَاتِلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [الأنفال: ١٥-١٦]. فالتولي يوم الزحف من أكبر الكبائر؛ لذا صممت عائلة "آدم" على الصمود، كما اتضح من قوله: "ولكن آدم اختار ألا يفرّ، واختارت العائلة ألا تفر" وجاء التكرار في قوله السابق ليبين شدة إصرار آدم وعائلته على القتال، والصمود مهما كانت النتيجة.

وصورّ قوله: "وكان الجميع يعرف أنها الهالكة، والساعة في الصباح تدقّ الرابعة، والصرب بأحذيتهم الثقيلة يدقون الأرض الطيبة، والعشب الأخضر في الفجر تدوسه جنازير الدبابات المتوحشة" شدة الموقف، والخطر الحقيقي المحقق بهم، ومع ذلك قرروا جميعا الصمود، هذا من جهة، ومن جهة ثانية صورّ قوله قسوة الصرب، الذين لم يميزوا بين البشر والشجر بدليل قوله إنّ الدبابات داست العشب الأخضر، كما داست البشر.

واستوحى قوله تعالى: (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) [آل عمران: ١٤٠]، في قوله: "صحيح الأيام دول" في أثناء حديثه عن مأساة التتار الذين تعرضوا لحمالات شتى من التنكيل بهم، وهو يقارن بين التتار الذين استطاعوا في يوم من الأيام القضاء على الخلافة العباسية باحتلالهم بغداد ودمشق، وها هم أحفادهم الآن لا يأمنون على أنفسهم في ديارهم بعدما انهارت دولتهم، وهم كما قال: "تري بوسع من أن يتصور أن هؤلاء التتار كانت لهم في سالف الزمان حضارة مشعة ودولة ذات قوة يحسب لها ألف حساب؟ من يمكن أن يتخيل أنهم وصلوا يوماً إلى أسوار موسكو وحاصروها وفرضوا الجزية على أمرائها؟" ولعل من المفارقات أن أحفادهم يتعرضون للاضطهاد من "موسكو" التي كان أجدادهم قد فرضوا على أمرائها دفع الجزية لهم!!! فدوام الحال من المحال، والأيام دول، وجاء الاستفهام المبني على التعجب في قوله "من أن يتصور و من يمكن أن يتخيل" ليبرز مقدار التباين بين حال الأجداد وحال الأحفاد، وكشف تكرار الاستفهام عن شدة تعجبه من الحال التي آلت إليها الأمور، وهذا ما وضحه قوله: "حضارات تصعد وأخرى تنهار، لا تلك تخيلت يوماً أنها يمكن أن تسقط، ولا هذه تخيلت يوماً أن بإمكانها أن تصعد" حقا إن الأيام دول. ومن أوجه الاختلاف بين النصين أن النص القرآني جاء في سياق التخفيف عن المسلمين مصابهم في غزوة أحد بعدما تحول النصر إلى هزيمة، واستشهاد عدد كبير منهم، وذلك ببيان سنة الله - سبحانه وتعالى- تتمثل في مداولة الأيام بين الناس لحكمة إلهية يريد بها الله - سبحانه وتعالى، والذي حدث مع المشركين في غزوة بدر، ومع المسلمين في غزوة أحد

* عنوان الحلقة "مأساة شعب تتار القرم ج ١" المقدمة في ٢٨ / ٤ / ٢٠٠٦.

خير مثال على ذلك، فدوام الحال من المحال، إذ لا بد من مرور الأمم بحالات من الانتصار وحالات من الانكسار وهكذا. أمّا أسعد طه فإنه وظّف النص القرآني في سياق الربط بين ماضي التتار وحاضر أحفادهم، متعجباً مما ألت إليه الأمور.

الحديث النبوي الشريف:

كان للحديث النبوي الشريف حضوره في حلقات برنامج "يُحكى أن" وبخاصة في الحلقات التي تحدث فيها عن الشهادة في سبيل التمسك بالدين الذي دفع أهل "كوسوفا" ثمنه غالياً، وتمثل في استحضاره قصة الأعرابي الذي أتى الرسول - صلى الله عليه وسلم - معلناً إسلامه، وتمنيه الشهادة في سبيل الله - سبحانه وتعالى- ورفضه أخذ الغنائم بقوله للرسول - صلى الله عليه وسلم: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأدخل الجنة، فقال له - صلى الله عليه وسلم-: "إن تصدق الله بصدقك" وهذا ما كان، وشهد له - صلى الله عليه وسلم - بذلك بدليل قوله - صلى الله عليه وسلم- "اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك"^(١) استحضر هذه القصة ليصور رغبة "آدم يا شاري" - أحد الثوار في جيش تحرير "كوسوفا"- في نيل الشهادة في سبيل الله، ولخصّ أسعد طه هذه القصة في قوله: "وحلمك أنت كان الشهادة، رصاصة في العنق.. هنا تماماً هنا.. وترحل والعدو يرحل، هكذا أسررت إلى أصدقائك، هكذا أخبرتهم أن الشهداء من قبورهم يهزمون الأعداء في قصورهم"، فالحلم هو هو لم يتغير منذ أن قال الأعرابي ذلك ذات يوم، وها هم الأحفاد يسرون على درب الأبناء، لم يغيروا ولم يبدلوا تبديلاً. وبذا يكون أسعد طه ربط بين الماضي والحاضر، وتحقق حلم آدم، كما تخيل أسعد طه أحد المقاتلين من الصرب يقول: "حققنا لآدم حلمه،

(١) مقبل بن هادي الوادعي، الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين، مكتبة دار القدس، صنعاء،

ط١، ١٤١١هـ، ٤٧٤.

فأصبناه في عنقه برصاصة"، وتحقق حلم آدم دليل على صدق نيته، فهو صدق الله فصدقه، كما قال- صلى الله عليه وسلم- للأعرابي، فهما صدقا الله فصدقهما، فمآلهما الجنة، وبهذا يتضح أنّ مشهد الحاضر استدعى مشهد الماضي.

وبما أنّ الجنة مآل الشهداء؛ لذا استحضر قوله- صلى الله عليه وسلم- في وصف الجنة، في الحديث القدسي: "قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"^(١)؛ ليبين الدافع الذي جعل آدم يصمد في ساحة القتال على الرغم من شدة المعركة، ويقاوم حتى ينال الشهادة كما يتضح من قوله: "لكن آدم اختار ألا يفرّ، واختارت العائلة ألا تفرّ، واختار الجميع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"، وتعاضدت الكناية مع إيجاز القصر للتعبير عن المعنى المراد الذي يبين أنّ آدم وعائلته اختاروا الصمود حتى لو كان الثمن حياتهم؛ فإنّ ذلك هو طريقهم إلى الجنة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإنّ تضحياتهم ستضمن حياة حرة كريمة لمن سيأتي بعدهم.

وتم قولهُ: "الحوار العين للشهداء، والشهداء لجوف طير خضر في قناديل معلقة بالعرش" مظاهر تكريم الشهداء عند الله - سبحانه وتعالى - المستوحى من قوله تعالى: (كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ) [الدخان: ٥٤] وقوله تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ مُّتَّكِعِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْنُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ) [الطور: ١٧ و ٢٠] وقوله صلى الله عليه وسلم في الشهداء: "أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم

(١) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ضبطه ورقم أحاديثه، وصنع فهارسه: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار التقوى للتراث، القاهرة، ١٥٢/٢.

تأوي إلى تلك القناديل"^(١)، ويتضح أنّ أسعد طه نجح في دمج عدة نصوص مستمدة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولولا معرفة المتلقي بتلك النصوص لما أدرك أنها من نصوص مختلفة.

استدعاء الشخصيات التاريخية:

من المعروف أن الشخصيات التاريخية تحمل إرثا عظيما، يتمثل في أنها كانت مؤثرة في وقتها، وما زالت تؤثر في وقتنا الحاضر، كما أنّ استحضار هذه الشخصيات يسهم في تقوية المعنى وتعزيزه^(٢)؛ ولهذا استدعاها في كلامه، وتعددت الشخصيات التي استدعاها في حلقات برنامجها، بما يتناسب مع الموقف الذي اقتضى استحضارها.

الخلفاء:

استحضر عددا من أسماء الخلفاء العباسيين (أبي جعفر والمأمون وهارون الرشيد) الذين شهدت بغداد إبان حكمهم أوج عزها ومجدها، مكتفيا بذكر الأسماء دونما تفاصيل، فالمعنى القصدي لاسم العلم داخل النص يعتمد على التفاعل الثنائي بين الاسم، ووظيفته داخل السياق^(١) فالاسم وحده كفيلا باسترجاع إنجازات كل خليفة من الخلفاء، وكل اسم من هذه الأسماء خدم بغداد

(١) مسلم بن حجاج، صحيح مسلم، تحقيق: نظر بن محمد الفاربي أبو قتيبة، دار طيبة للنشر، ٢٠٠٦، ط١، ٩١٢ / ٢.

(٢) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ١٩٩٢، ٢٤٥.

(١) أحمد مجاهد، أشكال التناص الشعري، دراسة في توظيف الشخصيات التراثية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ٥٠.

وأعلى من شأنها، وإذا كان الاسم الواحد يعيد إلى الأذهان صفحة مشرقة من تاريخ بغداد، فكيف باجتماعها معا، فالمنصور هو باني بغداد ومؤسسها، أما هارون الرشيد فهو الذي خاطب السحابة: "أذهبي حيث شئت فخرا جك لي"، والمأمون باني نهضتها العلمية. وها هي بغداد اليوم تحرم من الدفاتر والكتاب! يا لها من مفارقة أن تغدو الآن محاصرة من كانت ذات يوم عاصمة الخلافة!! ولو عاد هؤلاء الثلاثة الآن فماذا سيقولون للأبناء الذين فرطوا في إرث الآباء.

القادة :

استدعى عددا من الأبطال والقادة الذين نقشوا أسماءهم بحروف من نور في التاريخ؛ لما حققوه من إنجازات، ومن هؤلاء حمزة بن عبد المطلب- رضي الله عنه- الذي استحضره في قوله على لسان الصرب: "وفعلنا بحمزة ما فعلوه بحمزة، فبقرنا صدره وفعلنا الشيء نفسه مع من أحبه" فهو ربط بين استشهاد حمزة أحد ثوار تحرير "كوسوفا" واستشهاد حمزة بن عبد المطلب- رضي الله عنه- في غزوة أحد. وتضمن قوله السابق دمجا بين لقطتين متباعدين زمنيا ومكانيا، فمشهد الحاضر ذكر بمشهد من الماضي، فإذا كان المشركون في مكة بقروا بطن حمزة ولاكت هند بنت عتبة كبده، فإن أحفادهم من الصرب فعلوا الفعل نفسه مع سميّه (حمزة) في محاولتهم ترويع الأمنين، ومع ذلك تبقى جذوة الشهادة حية في النفوس، والاستعداد من أجل الدفاع عن الإسلام، فالأعداء هم هم لا يتغيرون ولا يكونون من محاربة الإسلام، والشهداء يقدمون أرواحهم، ويضحون بالغالي والنفيس.

واستحضر شخصية الحجاج في قوله: "الحجاج يعود إلى المدينة" في أثناء حديثه عن موت المئات من العراقيين المهاجرين إلى أستراليا، وعلى الرغم من

وجازة الجملة "الحجاج يعود إلى المدينة" إلا أنها تحمل في طياتها الكثير من الدلالات، التي لم يفصح عنها تاركا للمتلقي تقديرها وفهمها، ولعله بهذا الاستحضار يريد القول إن بغداد عندما وقعت في قبضة الاحتلال، لم تعد حرة واستبيحت، وعادت سطوة الحجاج وقسوته لتحكم البلاد من جديد، بدليل قوله "الجنود يعدمون كل رهينة"، مستحضرا الجانب السلبي من شخصية الحجاج، الذي بات رمزا للقسوة والاستبداد في الحكم، بدليل ما شاع عنه من قصص وحكايات في هذا المجال.

واكتفى باستحضار اسمي صلاح الدين وعمر المختار في قوله: "يحكى أن في زمان بعيد، من أيام الأساطير والمعجزات وحكايات الأبطال، الاسم لا يهم.. صلاح الدين، عمر المختار... لا يهم" إدراكا منه لقيمة الرصيد النفسي والشعوري الذي يحمله الاسمان، وذكرهما فقط يستحضر إلى الوجدان قصص بطولاتهم وتضحياتهم؛ لذا قال "الاسم لا يهم" فالذي يعنينا الإرث الذي يحمله الاسم، وهدفه من هذا إظهار رباطة جأش " آدم يا شاري" أحد ثوار جيش تحرير "كوسوفا" الذي سيقدم حياته رخيصة في سبيل تحرير بلاده، إذ لولا تضحياته وتضحيات أمثاله من الثوار لما تحررت البلاد.

وإذا كانت الشخصيات السابقة تمثل الجانب المشع من تاريخ المسلمين فإنه استحضر التتار في أثناء حديثه عن الأسباب التي دفعت بعض العراقيين إلى الرحيل عن بلادهم بعدما اشتد عليهم الحصار، الذي فرض عليهم بعد اجتياح الكويت، ومن المعروف عبر التاريخ أن التتار عندما اجتاحت البلاد العربية والإسلامية عاثوا في الأرض فسادا وقتلوا الأبرياء ونهبوا... إلخ، وهو استحضر كل هذه الدلالات واختزلها في قوله: "وعلى الحدود جحافل التتار تحاصر زاد الصغار، والعدوان يمنعان عن البلاد الدفاتر والكتاب، وكل ما يمكن أن يكون خبزاً أو حرية".

ووظف صيغة الجمع (جحافل) للدلالة على كثرة الدول التي التزمت بقرار الحصار وطبّقته على الرغم من قسوته. وتضمن قوله السابق اعتراضه على هذا القراء؛ لأنه جعل هذه الجحافل تحاصر زاد الصغار، والزاد: طعامٌ يتخذ للسفر^(١) الذي لا غنى لأي إنسان عنه فيه يقيم أود حياته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ قوله (الصغار) يدل على أنّ هذا القرار ظالم؛ لأنه شمل حتى الصغار، فهم لم يسلموا من الضرر الناتج عن الحصار.

ولو وضعنا جحافل أمام صغار لاكتشفنا قبح هذا الفعل، الذي يرقى إلى الجريمة؛ لأنه لا يقلّ عن القتل المباشر، ونتج عن هذا الحصار كما قال الحرمان من الدفاتر والكتب، فهو حصار ثقافي أيضاً؛ لأنه يهدف إلى تجهيل هذا الشعب المحاصر.

كما أنه ينتقد الملتزمين بهذا الحصار في قوله: "أغرب ما في القضية -ويا للعار- أن الأحرار خلف الحدود والديار يشاهدون وهم صامتون وقائع الجريمة، الرفاق منهم وحتى الإخوان". واختزل قوله (يا للعار) كل ما يريد قوله، والعار لا يطلق إلا على الأمر المخجل والمخزي، والعارُ كل شيء يلزم به سبّة أو عيب^(٢)، كما أنّ صيغة التفضيل (أغرب) تبيّن أن الالتزام بقرار الحصار لا يمكن قبوله وبخاصة أنه وصفه بالجريمة، ومما زاد من غرابة الأمر - من وجهة نظره- أنّ الأحرار من الرفاق والإخوان التزموا به، كلهم بلا استثناء، فصمتهم يعني موافقتهم على ما يحدث. وقد نفهم التزام الجنود بالقرار أو الدول، أما الذي لا يمكن فهمه فهو صمت الأحرار الذين عُرف عنهم رفضهم كل أشكال الظلم والاستبداد.

(١) الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح في اللغة، مادة (زود).

(٢) ابن منظور، محمد بن جلال الدين بن مكرم، لسان العرب، مادة (عير).

وأعلن رأيه بكل وضوح عندما تخيل أن القاضي أصدر حكماً بـ: "يعدم كل من يحاصر العتبات، والحليب في صدور الأمهات والأرجوحة وفساتين الصغيرات، يعدم كل من يحاصر المشافي والحقول والحدائق، وكل عصفور مغرد. وقاعات الدرس والطبشور"، فمن يلتزم بالحصار ينبغي أن يُحكم عليه بالإعدام؛ لأنه يحرم الإنسان من مقومات حياته الأساسية، ولا يكتفي بذلك بل يحاصر حليب الأطفال والمستشفيات، وكل مظاهر الفرح والبهجة، فهو يحول حياة المحاصر إلى جحيم لا يُطاق، ويدفعه دفعا إلى هجرة وطنه.

ويكشف قوله: "فلما زاد الزمان والظلم والحصار قال رجال ونساء من مختلف الأعمار: نهرب، لعل عند الغريب نجد الملجأ والأمان" عن مدى سوء الحال الذي يدفع بأبناء الوطن إلى ترك أوطانهم، والهجرة إلى بلاد بعيدة غريبة عنهم في كل شيء، يغادرون في رحلة غير مأمونة العواقب، فخط سير الرحلة من العراق ← إيران ← ماليزيا ← أندونيسيا ← استراليا، ومع ذلك يسافرون؛ لأنهم لم يجدوا الأمان في أوطانهم. ويا لها من حال أن يترك الإنسان مسقط رأسه، ويذهب إلى المجهول، على أمل أن يجد عن الغريب ما لم يجده في وطنه!!

ولولا سوء الأوضاع لما فكر هؤلاء بالرحيل عن وطنهم، فهم لم يجدوا بدا من السفر، كما أفصح قوله: "تبع ألف حرب وحرب، ألف حصار وحصار، وقبضة حديدية، يفكر الجميع في الأمر، أين من الفقر المفر؟ وأين نجد للأطفال بدلاً من الأكفان حبات البرتقال؟ حسم بعضهم أمره، ليس من مخرج سوى الفراق، فلنغادر إذن العراق". فتتابع الحروب وويلاتها، وشدة الحصار وتواصله العام ثلثي العام، والاستبداد والظلم، والفقر، والموت الذي يتربص بهم، أجبرهم على السفر، واجتماع هذه الأمور معا أدى إلى ذلك، وليس لهم من مخرج سوى

الفراق فغادروا العراق، وهذا ما كان. ومن سيبقى لينتظر الموت؟ وهو غير راض عما فعله المهاجرون بدليل وصفه لما فعلوه بـ "أحلامهم العجيبة" و"المغامرة" بل إن ما فعلوه أخطر من المغامرة فهم يغامرون بأرواحهم أعلى ما يملكون.

استدعاء الأماكن :

دفع سوء الحاضر أسعد طه إلى العودة إلى الماضي المشرق، لأهل العراق الذين باتوا الآن محاصرين في وطنهم، لا يملكون شيئاً من حطام الدنيا؛ ولعله رغب في التخفيف من مأساوية الحاضر؛ لذا استدعى أسماء الأماكن التي شهدت الإنجازات، كما يتضح من قوله: "والذكريات في القلب تكبر، الكرخ والرصافة،.. في الطرق إغراء وسحر، وفي الساحات إتشاد وشعر" الذي رسم صورة مشرقة لبغداد في أبعى تجلياتها عندما كانت موقلاً للعلم والشعراء، وتموج بالحياة موجاً، وتمور مورا بكل متع الحياة، وهذه الصورة المختزنة في الذاكرة، والمحفورة في الأذهان تكاد تتلاشى عندما ننظر إلى الحاضر المائل للعيان؛ ليحلّ مكانها الحروب والحصار والدمار والفقر والجوع.... الخ، وهو بهذا يدين الأحياء الذين سمحوا لعاصمة الخلافة الإسلامية أن تعاني ما تعانيه الآن، فالكل مشترك، والكل مدان.

التناص الأدبي:

استثمر أسعد طه ما اختزنته ذاكرته من نصوص أدبية في حلقات برنامجه، كما في قوله: "كل شيء يدعوك للغضب، صياح الجنود الغرباء في طرقات مدينتك، حروف غير حروفك على لافتة تعطي دارك، وأوامر للسلطان في قلب الميدان، ممنوعة لعب الأطفال، ويُنفى المهندسون والعمال، ويُعدم الأطباء

والتجار، وتُغلق المشافي والمدارس والحدائق والأزهار، كل شيء يدعو للغضب"، المستوحى من قول المتنبي في وصف شعب بوان^(١):

مَعَانِي الشَّعْبِ طَبِيباً فِي المَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلَكِنَّ الفَتَى العَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

الذي صورَّ الإحساس بالغربة التي شعر بها المتنبي في بلاد فارس؛ لأنَّ كل ما يحيط به - على الرغم من جماله - عمق من إحساسه بالغربة، أمَّا أسعد طه فبيّن أن الإحساس بالغربة الذي سيطر على أهل "كوسوفا" بعدما تعرضوا لحمالات إبادة من الصرب، الذين سعوا بكل ما أوتوا من قوة إلى تغيير معالم مدينتهم، وتمثّل في قوله "حروف غير حروفك على لافتة تعتلي دارك" ولكن هذا الإحساس سرعان ما دفعهم إلى الغضب والقتال من أجل تحرير بلادهم، إذن النقي النسان في تصوير الإحساس بالغربة، ولكنهما افترقا لأن المتنبي عبر عن همّ فردي أحسّ به وهو في بلاد فارس، وهذا أمر متوقع أن يمر الإنسان بمثل هذا الإحساس، عندما يذهب إلى بلاد غير بلاده، أمّا أهل "كوسوفا" فهم يحملون همّاً جماعياً، ويتصدون لعدو يريد اقتلاعهم من جذورهم من بلادهم، فكيف يطيق الإنسان رؤية جنود الاحتلال يجوبون دياره، إذن الإحساس بالغربة دفعهم إلى العمل الإيجابي المؤثر وهو التصدي للمحتل. وخلاصة القول إنّ مأساة أهل "كوسوفا" أشد من معاناة المتنبي.

وأثار الحصار المفروض على العراق أشجان أسعد طه مما جعله يستحضر قول علي بن الجهم^(٢):

(١) أبو الطيب المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتبليان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهرسه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ٢٥١ / ٤.

(٢) علي بن الجهم، ديوان علي بن الجهم، تحقيق: خليل مردم بك، دار الآفاق، بيروت، ٢٥٢، ١٩٨٠، ٢٥٢.

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجَسْرِ جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أُدْرِي وَلَا أُدْرِي

الذي يصور حالة الرفاهية والأمن التي كانت عليها بغداد عندما كانت عاصمة الخلافة العباسية، أما قول أسعد طه: "والذكريات في القلب تكبر، الكرخ والرصافة، عيون المها، فتون الهوى" فجاء في سياق إظهار الأسف والحزن، لما آلت إليه بغداد.

ووقف أسعد طه حائرا وهو يرى أفول نجم بغداد في ظل الحصار، وعزا ذلك إلى غيرة العواصم الأخرى منها، ولولا ذلك لما أسهمت في تدمير بغداد، كما يتضح من قوله: "وتغار منك يا بغداد أمم وإمبراطوريات" المستوحى من قول نزار قباني في خطاب "بيروت":

يا بيروت .. يا بيروت

يا ست الدنيا يا بيروت

نعترف أمام الله الواحد نعترف

أنا كنا منك نغار

وكان جمالك يؤذينا

إبان الاجتياح الإسرائيلي لبيروت في عام ١٩٨٢، وهي العاصمة التي أُطلق عليها ذات يوم "سويسرا العرب".

فمأساة بغداد ذكرت بمأساة بيروت، وبهذا فإن أسعد طه وحد بين معاناة العاصمتين، ولمس جرحا غائرا في الإنسان العربي، وكأنه يريد القول إننا لا نحسن الحفاظ على النقاط المضيئة في حياتنا، ونخسر أثنى العواصم بأبخس الأثمان، فبيروت بالأمس وبغداد اليوم، وماذا بعد؟؟ وهذا يمثل مظهرا من

مظاهر انكسارات الأمة العربية، وتشتت الإنسان العربي، ومعاناته إزاء الأحداث المتتابعة، والكوارث المتواصلة. واختزل مشاعر الإحباط التي يحياها الإنسان العربي، ويبرز مقدار المرارة لفقد الأشياء الجميلة والمؤثرة في حياتنا.

التناص الشعبي:

وبما أن برنامج " يحكى أن" مقدّم إلى متلقين من مستويات ثقافية مختلفة ؛ لذا حرص أسعد طه على الاستعانة بالتراث الشعبي؛ ليجذب كل فئات المتلقين، ويستقطب أكبر عدد من المشاهدين، وبدا التناص الشعبي واضحا في عنوان البرنامج " يُحكى أن" فهذه العبارة مما درج القصص الشعبي على الافتتاح بها؛ لتشويق المتلقي وإثارة انتباهه، وإذا كانت هذه العبارة تُشعر المتلقي أنّ ما سيُقص عليه جاء من الماضي البعيد؛ فإنّ أسعد طه استعان بها في سياق إعادة رواية حدثٍ حدثَ على أرض الواقع.

وبناء الفعل (يحكى) للمجهول لأنّ الحدث هنا هو الأهم، وليس الفاعل أو الراوي للحدث، وهذا ما تمّ تسليط الضوء عليه في كل حلقة من حلقات البرنامج التي كانت تتناول حدثًا مختلفًا عن الآخر، ويربط بينها أنها تتحدث عن معاناة الإنسان حيثما كان، بغض النظر عن لونه أو مكانه أو زمانه، فالمعاناة هي التي وحدت بين كل حلقات البرنامج.

ومع أنّ " يحكى أن" عنوان البرنامج إلا أنّ أسعد طه استحضرها ثانية في افتتاحه للحلقة التي تحدث فيها عن إنشاء جيش تحرير "كوسوفا" وجاء هذا الافتتاح منسجما مع عنوان الحلقة " آدم يا شاري.. بطل من زمن المعجزات والأساطير" ومع مضمونها الذي يصور بطولة " آدم" كما يتضح من قوله: "في زمان قريب رجل أتى من زمان بعيد، من أيام الأساطير والمعجزات وحكايات

الأبطال" فما فعله آدم وموصافاته وبطولته... الخ لم تعد من مواصفات هذا العصر؛ لذا عدّه آتيا من زمن الأساطير، فهو من أوائل الذين انضموا إلى جيش تحرير "كوسوفو" وقدّم حياته رخيصة في سبيل تحرير وطنه، وبصنيعه هذا يذكّرنا ببطولات القادة الذين سطرّ التاريخ بطولاتهم، وكأنه يريد القول على الرغم من أنّ زمن البطولات قد ولى إلا أنّ "آدم" بفعله هذا يعيد للأذهان وبما أنّ برنامجهم يقوم على قصّة حكاية حدثت على أرض الواقع؛ لذا نراه يستحضر عبارة مما اعتدنا على قراءتها في القصص الشعبي، وهي قوله: "هَذَا مَا كَانَ قَبْلَ زَمَانٍ"؛ ليلخص قصة "كوسوفا" التي كان أهلها ينعمون بالسلام والأمان ذات يوم في وطنهم، ثم شاعت الأقدار أن يتبدل الحال ويحلّ محله الخراب والدمار، فما كان أمام أهل "كوسوفا" إلا إنشاء جيش تحرير "كوسوفا".

واستعان كذلك بالتناص الشعبي في قوله: "لكن كان ما كان" في حديثه عن "سفينة الموت" واختزل قوله هذا معاناة العراقيين الناتجة عن الحصار الذي فُرض على بلادهم، وصور كذلك تبدّل حال أهل العراق عندما كانوا ينعمون بالأمن والسلام في بلادهم، وحلّ محلّهما البؤس والشقاء.

واستوحى قوليه السابق من العبارة التي اعتدنا على قراءتها في افتتاحية القصص "كان يا مكان" وإذا كانت هذه العبارة تمهد لبداية القصة؛ فإنّ أسعد طه استعان بها لاختزال قصة معاناة شعبين من قارتين مختلفتين وحدّ بينهما الدين والألم، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

وجسدّ قوله في خطاب "آدم": "وماذا عساك أن تفعل، وأنت القليل؟ والظلم عندهم دين، والحديد أيها الفارس لا يقله إلا الحديد"؟ التباين بين قوة الصرب وقوة جيش تحرير "كوسوفا" إذ لا مجال للمقارنة بين القوتين، ومع ذلك لم يتراجع "آدم" عما نذر نفسه من أجله.

وقوله (والحديد أيها الفارس لا يفله إلا الحديد) مستوحى من المثل: " لا يُقْلُ الحَدِيدَ إِلَّا الحَدِيدُ"^(١) الذي يبين أنّ القوي لا يقدر عليه إلا مَنْ يماثله قوة، أو يتفوق عليه، وإزاء هذه الحقيقة ماذا يمكن للمحتل أن يفعل أمام القوة الغاشمة التي تسيطر عليه؟؟ وغني عن القول إنه لا خيار أمام المحتل إلا مقاومة المحتل، وهذا ما فعله " آدم " فهو على الرغم من إدراكه أن قوته المادية لا تكاد تُذكر أمام قوة الصرب، لكن إيمانه بحقه المشروع في الدفاع عن أرضه دفعه إلى فعل ما فعل.

ولعل هدف أسعد طه من الاستشهاد بهذا المثل التماس العذر لآدم وأمثاله الذين قد لا يحققون الأهداف التي يسعون إلى تحقيقها، لكن ثمارها سوف تُقطف ذات يوم، ويعيش أحفادهم في أمان في وطنهم المحرر، وإن لم يتحقق هذا الأمر في حياتهم فيكيفهم أنهم حاولوا، وضحوا بأعلى ما يمكن في سبيل وطنهم، وبذا أصبحوا نماذج تُحتذى في التضحية.

وهذا ما كشف عنه قوله: "وحسبنا أنّ صغارنا هم من يحصدون زرعنا" الذي استوحاه من الحكمة "غرسوا فأكلنا ونغرس فيأكلون" ولئن كانت الحكمة تتحدث عن غرس الثمار فإنّ أسعد طه نقلها إلى سياق جديد، سياق جني الأحفاد لثمار نضال الآباء.

واستحضر كذلك مبدأ من المبادئ التي قامت عليها شريعة حمورابي "العين بالعين والسن بالسن" ونقله إلى سياق جديد، سياق مواصلة التضحيات، وعدم توقف النضال على الرغم من كثرة الشهداء، وبذا يصور إصرار أهل " كوسوفا" على تحرير أرضهم مهما طال الزمان، ومهما كثرت التضحيات.

(١) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٨٤ / ٣.

التناص الأسطوري:

نوع أسعد طه في أسلوب إعداده وتقديمه لحلقات برنامجه؛ في سبيل التأثير في المتلقي؛ وليكسب تعاطفه مع قصص برنامجه، وجاء التناص المستوحى من الأساطير ليصور كثرة التضحيات التي تقدمها الشعوب في سبيل تحرير بلادها، وفي هذا السياق استحضر أسطورة الفينيقي أو العنقاء⁽¹⁾ في سياق حديثه عن تقديم أهل "كوسوفا" الشهيد تلو الشهيد في سبيل تحرير وطنهم. مكتفياً بذكر ومضات سريعة؛ لكنها كافية للدلالة على مراده، ومعتمداً على ثقافة المتلقي وقدرته على استحضار النص الغائب وفهم دلالاته.

فقوله: "والصرب بأحذيتهم الثقيلة يدقون الأرض الطيبة والعشب الأخضر في الفجر تدوسه جنازير الدبابات المتوحشة فيشُبُّ مرة أخرى واقفاً ويهتف بآدم أن الحرب كر وفر" يصور العشب الذي داسته الدبابات يشبُّ واقفاً ليحث أبناءه على مواصلة القتال، وعدم الاستكانة أمام قوة الأعداء، وضخامة التضحيات، وفي الوقت ذاته، يكشف قوله السابق عن قسوة الصرب الذين لم يتورعوا عن دوس العشب الأخضر بدباباتهم، فهم يسعون إلى إبادة كل مظاهر الحياة في تلك المنطقة.

وأكد هذا المعنى في قوله: "فالأرض كما البشر، بعد كل حرب تلد مزيداً من البشر" فالغاصب يتصور بقتله أكبر عدد ممكن من الشهداء، يمكنه من إضعاف عزيمة المناضلين في سبيل حقهم، ولا يكون في حسابه أن شدة القتل تولد المزيد من الشهداء، فكل مولود مشروع شهيد، وتوالي التضحيات يحقق النصر، هذا ما

(1) وهو " اثر خيالي ورد ذكره في قصص مغامرات السندباد وقصص ألف ليلة وليلة، وكذلك في الأساطير العربية القديمة. ويمتاز بالجمال والقوة، وفي معظم القصص أنه عندما يموت يحترق ويصبح رماداً، ويخرج من الرماد طائر عنقاء جديد" ولمزيد من التفاصيل: ينظر ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

قاله على لسان آدم: "هكذا أسررت إلى أصدقائك، هكذا أخبرتهم أنّ الشهداء من قبورهم يهزمون الأعداء في قصورهم"، وأكدّه ثانية في قوله: "الأرض باقية ما بقي الشهداء". وخلاصة القول إن أهل "كوسوفا" يرفضون الرضوخ أو الاستسلام أو التفريط بحقوقهم، ولو قدّموا في سبيل ذلك أعلى ما يملكون، فهم يدركون أنّ تضحياتهم ستضمن حياة حرة كريمة لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم.

النتائج:

تتقلّ أسعد طه بين عدة أزمنة، وعدة أماكن في سبيل إيصال الرسالة التي يريد إيصالها إلى المتلقي، وغرسها في وجدانه ليضمن النجاح لبرنامج، وربط بين الماضي والحاضر، وأفسح المجال للمتلقي ليدرك المغزى الذي يسعى إلى تقريره في ذهنه .

تنوعت أنماط النصوص المقتبسة في حلقات البرنامج ما بين النص الديني والأدبي والتاريخي والشعبي والأسطوري؛ فهو يخاطب متلقين من مستويات مختلفة، واستطاع أسعد طه صهر ما استوحاه من النصوص الغائبة، وإعادة صياغتها من جديد؛ لأن جوهر التناسل يقوم على "الهضم والتحويل"^(١)، وهذا يظهر قدرة معد البرنامج ومقدمه على توظيف ما استحضره من النصوص الغائبة بحيث دخلت في نسيج حلقات البرنامج، فالتناسل يثري النص، ويحقق التأثير الذي سعى أسعد طه إلى إحداثه في المتلقي؛ ليتعاطف مع حلقات البرنامج، ويكشف في الوقت نفسه عن ثقافته الواسعة والمتنوعة.

وأدّت النصوص المقتبسة وظيفة فكرية من جهة، ومن جهة أخرى، أدّت وظيفة فنية، وتضافرت الوظيفتان معا، لتتميم فكرة البرنامج.

(١) كاظم جهاد، أدونيس منتحلا (دراسة في استحواد الأدبي، وارتجالية الترجمة) يسبقه : ما هو التناسل؟ مكتبة مدبولي، ٤٣.

التعليقات والمناقشات

- د. فتحي ملكاوي

فيما يخص بلاغة الخطاب والتناص يرى أنّ المشاهد التي روتها د. ثناء عن الراوي كانت أقرب إلى الأحداث وأكثر تأثيراً في المستمع والمتلقي من الألفاظ نفسها، ويتساءل هنا: إلى أي درجة كان التناص بين الألفاظ ذا دورٍ في إحياء الأحداث بطريقة تتجاوز اللغة نفسها؟

- د. زياد الزعبي

يتحدث حول مفهوم فوكو للخطاب الذي يدل على نوع من الخطاب الآني المرتبط بسياق اجتماعي فكري مباشر؛ لذلك يرى أن ما تفضلت به الدكتورة ثناء حول التناص كان يشير إلى هذه الظاهرة المرتبطة بعملية التأثير المتصلة بالسياق. لذا يظن أنه كان بالإمكان التعمق في هذا المجال بالإشارة إلى الخلفية الفلسفية التي طرحها فوكو لمسألة سلطة النص التي تعتمد على الأرشيف من وجهة نظر فوكو وهو ما استحضرت د. ثناء بعضه في إطار مفهوم التناص الذي يعني استدعاء نص سابق يقوم بتدعيم نص حاضر بغض النظر عن سلسلة التحولات التي تصيب الدلالات في انتقاله من زمن إلى زمن أو من سياق إلى سياق أو من صورة إلى أخرى.

- رد الدكتورة ثناء عياش

فيما يتعلق ببرنامج "يُحكى أن" ترى أن المادة الأدبية كانت تأتي في مقدمة ووسط وخاتمة البرنامج وفي التمهيد لفقرات البرنامج أو المقابلات مع الشخصيات، بحيث لا تقل المادة الممهدة للحدث تأثيراً في المتلقي عن الصورة نفسها، خاصةً أن مثل هذه البرنامج تقدّم إلى مخاطبين من مستويات مختلفة.

فمن المستمعين من تؤثر فيه الصورة وآخرين تؤثر فيهم المادة اللغوية؛ وهذا يؤدي بنا إلى أن هذه البرامج التي تقدّم لنا يمكن أن تقدّم بمستوى راق ولا يتعارض هذا أبداً مع أنها مادة إعلامية؛ فالشائع في الأذهان عندنا -للأسف- أنه إذا أردت أن تكسب المشاهد فقدّم له مادة إعلامية بصرف النظر عن مستواها أو لغتها.

وتعتقد بأن هذا البرنامج أدّى الرسالة وارتقى بذائقة المشاهد؛ لذا توصي بأن يهتم الإعلام بمثل هذه البرامج ذات المستوى الراقى.

